**لبنان الكبير في المراسلات المحفوظة في مطرانية زحلة للكاثوليك: لماذا الأقضية الأربعة لبنانية؟**

* [الدكتور طوني عطاالله](https://newspaper.annahar.com/author/25020-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1-%D8%B7%D9%88%D9%86%D9%8A-%D8%B9%D8%B7%D8%A7%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87)

* 29 آب 2020 | 00:55

يهمل المؤرخون الوثائق والمطالب الرسمية والشعبية التي أوصلت إلى استعادة الأقضية الأربعة التي كانت سُلخت عن لبنان.

ننشر هنا وثيقة تاريخية هي نص لمُراسَلَة باللغة الفرنسية، وترجمة مقتطفات منها إلى العربية، وهي عبارة عن رسالة موجّهة من رئيس أساقفة زحلة والفرزل والبقاع للروم الملكيين الكاثوليك المطران كيرلس مغبغب إلى رئيس الوزراء الفرنسي ووزير الخارجية السيد الكسندر ميللران (Alexandre Millerand) الذي كان مكلفًا بالتفاوض مع تركيا لإحلال السلام عقب إنتهاء الحرب العالمية الأولى. حملت الرسالة تاريخ 13 أيار 1920، ووجهت إلى ميللران في باريس قبيل أشهر قليلة من انتخابه رئيسًا للجمهورية الفرنسية بتاريخ 23 أيلول 1920.

مطالبة المطران مغبغب بإعادة الأقضية الأربعة المسلوخة إلى لبنان قد لا تكون المطالبة الوحيدة الصادرة من البقاع، أو من بقية المحافظات والمناطق اللبنانية. ولكنها كانت مركّزة، عميقة المعرفة، تحاكي العقل بلغة المنطق بهدف إقناع الجانب الفرنسي.

ويلاحظ ان المنطق اللبناني في هذه الوثيقة تركز حول الأبعاد الاقتصادية، وهي الأبعاد التي اهملتها الكتابة التاريخية بصورة شبه تامة، وأولت الجوانب السياسية للاستقلال الاهتمام الأول إضافةً إلى الجوانب الوصفية التي اوردت فيها ردات فعل المواطنين المشاعرية و"الفرحة" التي عمت أوساطهم في الاستقلال، على ما تروي كتب التاريخ المدرسي بمعظمها. وقد يعثر الباحث على رسائل أخرى للمطران مغبغب الذي انتخب في وقت لاحق بطريركًا للروم الملكيين الكاثوليك، تطالب بالاستقلال والحياد. وتنبع أهمية موقفه انه كان يعي ان الحياد والاستقلال واستعادة الأقضية الأربعة تجنب لبنان الفقر والجوع والعوز...

هذه الوثيقة التاريخية تمّ إكتشافها للمرة الأولى في إطار أعمال برنامج "الاستراتيجية الوطنية للتربية على المواطنة والعيش معًا". ولم يسبق ان تمّ نشرها أو تحليلها أو التعليق عليها أو استعمالها. قد يكون بعض المؤرخين اطلعوا عليها، ولكنهم لم يتوقفوا عندها، ولم يسعوا إلى الاستفادة منها في إطار برامج التاريخ. وآثرنا هنا تسليط الانتباه عليها لأنها تضيء جوانب هامة وتاريخية عن لبنان الكبير. ولأن جهل الماضي لا يقتصر ضرره على معرفة الحاضر، بل يؤدي إلى شل العمل في الحاضر والمستقبل.

عرضت هذه الوثيقة على المرجع والمؤرخ الدكتور عصام خليفة، وهو صاحب أربعة مؤلفات عن طائفة الروم الملكيين الكاثوليك وعشرات المؤلفات عن المياه والحدود...، الذي علّق عليها بنكهة لبنانية مازحة وقال: "صحيح ان التفاوض حول استقلال لبنان كان يقوده البطريرك الماروني الياس الحويك، لكن العمق في الواقع كان كاثوليكيًا"!

يقول المطران مغبغب في رسالته إلى رئيس مجلس الوزراء الفرنسي:

رسالة موجهة من المطران كيرلس مغبغب، راعي أبرشية زحلة والفرزل والبقاع

الوكيل الشرعي للروم الملكيين الكاثوليك في لبنان

إلى فخامة السيد ميرللران رئيس مجلس الوزراء الفرنسي

"فوّضني موكّليني الذين يتكوّن منهم بلدي بأن أحمل إلى مسامعكم الكريمة، الأسباب التي يطالبون من أجلها بضم الأقضية الأربعة إلى لبنان على وجه السرعة، وهي أقضية البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا، واسمح لنفسي رجوتكم حسن العناية والاهتمام للأسباب التي اعرضها هنا إيجازًا.

بادئ الأمر، إن عودة الأقضية المذكورة قانونًا إلى لبنان هي مسألة لا جدل فيها، لأنها كانت في كل الأزمنة ملكًا له.

لبنان الكبير، في الواقع، ليس سوى فينيقيا فيما مضى. إذ ان مملكة الفينيقيين كانت تضم، باعتراف جميع المؤرخين قديمًا وحديثًا، أقضية البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا، الممتدة حتى سفوح جبل حرمون (جبل الشيخ). وهذا ما حدا بقائد الأركان الأعلى لفيلق المشاة الفرنسي الذي أُرسل إلى لبنان عام 1860 لإرجاعها إلى لبنان الكبير، على غرار ما نطالب به اليوم. وهذا أيضًا ما حمل الإنكليز بقوة عام 1915 على رفض إدخال هذه الأقضية الأربعة تحت لواء حكم السلطان حسين الحديث الذي قاموا بإعلانه. (...)

ومنذ هذه اللحظة، وبهدف إعادة لبنان القديم، أضفنا إلى الحالي بعض أجزائه التي فصلت عنه مثل بيروت وصور وصيدا، الخ. ولكن لماذا لا ننجز عودة لبنان بضم الأجزاء الأخرى؟ لماذا نجعل من هذا اللبنان كائنًا مقطع الأوصال؟

من جهة ثانية، فإنه من المؤكد- والحرب العالمية الأخيرة اظهرت بقوة- ان فرنسا كانت تبحث عن ضمان خير الشعوب، بالحفاظ على مصالحهم. ولقد فعلت ذلك خاصةً من أجل الأمم التي كانت ترتبط بها بعلاقات منذ زمن بعيد ولقرون خلت. وبالتالي، فما من شك ان مصالح، اللبنانيين ومسيحيي السهول المشار إليها، وبصورة خاصة مصالح الروم الكاثوليك ستكون عُرضة لأضرار بالغة من دون ضم الأقضية. وهنا إسمحوا لي فخامة الرئيس ان الفت انتباهكم ان هذا التمييز بين الطوائف المختلفة التي تدين بالمسيحية في بلدنا، هو بعيد عن الاستجابة لتطلعاتي كشخص محب لوطنه وكرجل دولة. ولكن، وبما ان الأمر ليس أقل صحة في هذا البلد ان التمييز هو حتى هذه اللحظة، للأسف، مسألة أساسية، وتبقى كقاعدة للحياة الاجتماعية، بانتظار مستقبل أفضل، لذلك أجد نفسي مضطرًا إلى الأخذ بالحسبان في اعتباراتي هذا الوضع المؤسف.

قلت ان مصالح اللبنانيين تتطلب ضم الأقضية أو النواحي المعنية. ففي الواقع، من دون هذا الضم سيكون لبنان محكومًا بالموت من الجوع. فأراضيه المتبقية تكاد لا تطعمه سوى خلال الشهرين أو الثلاثة التي تلي الحصاد. وبقية أيام السنة، يتعين عليه ان يبحث عن مصادر الغذاء في مكان آخر، والله وحده يعلم كم سيكلّفه ذلك؟! من جهة اخرى، فإن دمشق يغذيها سهل حوران الخصب. وحمص وحماة يموّنهما سهل تدمر. وحلب مع الحملات العسكرية التي لا تنتهي وتحاصرها من كل جانب، استطاعت خلال الحرب تأمين الخبز لأكثر من 400 ألف جندي. لماذا هذه المدن لها سهولها، وبلد بأمه وأبيه كلبنان ليس له سهله، ويحكم عليه بالموت من الجوع، في حين ان غذاؤه يبعد خطوتين عنه؟ هل يراد أن نجدد له عقدة الحرمان؟

يُضاف إلى كل ذلك ان معظم ملكيات الأراضي في هذه الأقضية الأربعة عائدة إلى مواطنين لبنانيين، وبصورة خاصة إلى مواطنين زحليين. ويتوجب على هؤلاء الملاّكين الخضوع في آن: لقوانين حكومتهم المتعلقة بالأراضي، وفي الوقت نفسه الامتثال للمعاملات الإدارية المفروضة من حكومة دمشق. أيُّ إحراجٍ وفوضى، وأيضًا أي متاعب، وكم من الرحلات سوف يُكلّفهم هذا الفصل إلى جزئين، وهما كانا واحدًا في ما مضى!؟

وبصفتي راعيًا لزحلة، وفي الوقت عينه للبقاع، اسمح لنفسي إلحاحًا، فخامة الرئيس، الإصرار على مصالح هذه المدينة بنوع خاص. أعرف أنه لديكم حاليًا خصوصًا الحفاظ على مصالحكم في العديد من الدول بصورة خاصة، ومصالح أخرى ذات أهمية كبرى وأكثر عمومية وخطورة. ولكن أدرك أيضًا أني أقوم بواجبي كراعٍ، وانك منذ هذه اللحظة لن تعد تجدني أنانيًا.

كل العالم يعرف ان لبنان ينقسم إلى سبعة أقضية هي: كسروان، الكورة، البترون، جزين، المتن، الشوف، وزحلة.

هذه الحدود الإدارية بين الأقضية، قد لا تكون مثالية من وجهة نظر طوبوغرافية، ارتكزت على عامل وحيد هو السيطرة العددية لهذه الطائفة أو تلك في هذه التقسيمات المختلفة. وهكذا، فإن أقضية كسروان وجزين والبترون والمتن هي مارونية، بينما قضاء الكورة هو روم أورثوذكس، والشوف درزي، وأخيرًا زحلة هي روم كاثوليك.

وبقدر ما هي الأقضية الستة الأولى في وضع جغرافي ممتاز، يسمح لها بشكل جيد بالازدهار الاجتماعي مع بعض التفاوت، بقدر ما هو قضاء زحلة محروم من كل ميزة من هذا النوع. ففي الواقع، بينما تمتلك الأقضية الستة الأولى كل مزايا الترابط فيما بينها، بالإضافة إلى التواصل مع المدن الساحلية: بيروت، صور، صيدا، طرابلس؛ فإننا نجد ان زحلة هي خارج أي علاقة، انها مفصولة عن سائر المناطق اللبنانية والعالم بسلسلة جبالها، الشاهقة والمكسوة بالثلج. لذلك، فإن الأقضية الأربعة وحدها، المتنازع عليها، والقائمة على أبوابها، يمكن أن تحسّن وضعها من خلال تأمين القمح والسلع المعيشية الضرورية، ومن خلال وصل العلاقات السهلة لسكانها مع أخوانهم في الدين من مواطني هذه الأقضية.

هذه هي مصالح لبنان عامةً، وزحلة بصورة خاصة التي تطالب بإعادة لبنان الكبير. وإذا أخذنا في الاعتبار مصالح الأقضية الأربعة المشار إليها، فإننا نجد انها ستكون مُدِينةً لفرنسا السخية إذ بفضلها تُنقذ هذه الأقضية التعيسة من مصيرها الرهيب.

وكيف يمكن لهؤلاء المسيحيين في السهل ان يواصلوا عيش حياة هادئة في ظل نظام الحكم الحالي؟ انتشرت طوباوية غبية لدى بعض الناس الذين ظنّوا خطأ، حين انهارت الحكومة التركية في بلدنا، أن الإتفاق الأمثل يسود من اليوم فصاعدًا بين المسيحيين من جهة، وبين المسلمين والمتاولة والدروز من جهة ثانية. وساد الاعتقاد ان العصر الذهبي الذي تحدث عنه النبي عيسى سوف يومض أخيرًا على سوريا، وان الذئب سيظهر بعد الآن مع الخراف، وان النمر سيفقد وحشيته. وللأسف! فالأحداث يجب ألا تتأخر في سحق هذه الأوهام. في أقرب وقت تكون القوى الحليفة، وفرنسا خاصةً قد خلّصت السوريين من مخالب المارد التركي الذي يمسك بهم تحت نعاله متلوّين من شدة الألم.

Volume 0%

واليوم بالفعل تتفجر مشاعر الظلم بكل مساوئها. أرجوكم ان تعثروا، إذا استطعتم، على مسيحي واحد يشغل أي زاوية في الجهاز الإداري القائم في دمشق. ومع ذلك فإن الوظائف هي متنوعة إلى أقصى الحدود. ومن هي الجهة التي يتوجب عليها تغطية الموازنة اللازمة للنفقات التي تفرضها كل هذه الوظائف، إن لم يكن أفراد هذه المملكة الحديثة، وبينهم المسيحيون خاصةً على غرار ما شاهدنا حدوثه مرات عدة في السابق؟

أين هي إذًا العدالة التوزيعية التي وحدها تصنع رفاه الشعوب المحكومة؟

علينا ألا نتعجب بعد اليوم من رؤية هذه الحركة الكثيفة من الهجرة التي تحمل يوميًا إلى أميركا آلاف المواطنين، الأغنياء والفقراء على السواء، من كل جهات لبنان ومن أقضية السهل. وإذا سألتم كل هؤلاء المهاجرين عن السبب الذي من أجله يغادرون أرض أجدادهم، فإنهم يجيبون بأنهم يغادرون آسفين، ومكرهين تحت وطأة المحن والويلات التي تتهددهم.

ثم إن، فرنسا بامتناعها إذًا عن التدخل، كانت جزءًا من السبب، خارجًا عن إرادتها، نعم، ولكنه سبب- أدى إلى إطلاق العنان لموجة من الغضب الشديد ضد مسيحيي السهل. وتفلت موجة الغضب هذه يمكن ان تكون لها تداعياتها إلى أمد بعيد في المستقبل. إن مبادئ العدالة والإنسانية تفرض عليها واجب، برأيِ، بإنقاذ هؤلاء المسيحيين إلى الأبد من مخالب مضطهديهم. وبالأخص، يُعتبر الفرنسيون، في نظر العالم بأنهم حرّاس العلمانية، وكمأذونين من الله على سخائهم العفوي وشهامة فروسيتهم. وهذا السهل أليس في نظرهم بولونيا جديدة ليس أقل تعاسة ولا أقل حرمانًا منها هي الأخرى؟

انا متأكد أن الفرنسيين لم يفقدوا روح السخاء هذه التي تحلّى بها أسلافهم الذين لا تزال مآثر بطولاتهم الخيرية بادية بوضوح في سوريا، وبنوع خاص في السهل. لن يتركونا، ولن تبقى آذانهم صماء في مواجهة الأصوات التي تناشدهم، والتي ترتفع من وسط بؤسنا، بينما آباءهم لم يتقاعسوا يومًا عن مساعدتنا على النجاة من المحن، بصورة عفوية ومن دون أي نداء.

وعلاوة على ذلك، ولأننا نود ان تكون المبادئ الولسونية راعية للعالم من الآن وصاعدًا، وأن تقرر مصير الشعوب. يجب ان يكون السهل، عملاً بهذه المبادئ نفسها، من حصة فرنسا حصرًا. إنه لأمر صحيح، ويبدو اليوم في الظاهر ان أكثرية السكان في الأقضية الأربعة تميل إلى جهة الشريف. ولكن، لنعترف أولاً انه من حيث الحقوق، بأن الموافقة عن طريق الإكراه ليست صالحة أو مشروعة بتاتًا. بسرعة ننتزع موافقتك عندما نطلب منك ذلك فيما نشهر المسدس في يدنا، إلا إذا كنت بطلاً. والأمور لا تسير بخلاف ذلك عندنا. لدي ما يكفي من الأدلة في الحديث عن اضطهاد المسيحيين. ثانيًا، خلال الاستفتاء الذي ترأسته اللجنة الأميركية، لم يكن مطروحًا قط سوى اعتماد فرنسا، أو انكلترا، أو أميركا، كسلطة منتدبة على بلدنا. عدد قليل جدًا صوتوا للشريف. وإذا كانت فرنسا لم تنل أكثرية الأصوات، فهذا مردّه إلى بعض المؤامرات الخفية، وإلى الضغط الذي مارسته بعض الشخصيات النافذة. حتى هذا اليوم، وبالرغم من القوة المستخدمة لقمعهم، ولنقل بصراحة، وتحت وطأة ضربات مضطهديهم، فإن المسيحيين يعلنون بأعلى أصواتهم حبهم لفرنسا.

أحيطكم علمًا إذًا، بأن ملكية أراضي السهل هي تقريبًا بالكامل للمسيحيين. وبالإضافة إلى ذلك، أؤكد لكم ان المسيحيين هنا يشكّلون تقريبًا بمفردهم النخبة المثقفة. وأصواتهم يجب ان يكون لها وزن أكثر من سواهم في نظر القوى الدولية. ولكن، اني على يقين تام، انه يوجد عدد لا بأس به من المسلمين، والمتاولة والدروز، ليسوا أفل ذكاءً وثقافةً، ويطالبون، إن لم يكن في العلن، ففي السر على الأقل، تجنيبهم حكم الشريف. وعلاوة على ذلك، أني متأكد، من ان فرنسا إذا احتلت الأقضية المتنازع عليها ليس أكثر من شهر أو شهرين، فلن تتأخر بالفوز بتأييد جميع أصواتها دون أي جهد؛ ولا فائدة من الإدلاء بالأسباب. وأخيرًا، إذا كانت حكومة الشريف اليوم بإعلاء صوتها فوق كل السطوح-وعذرًا للتعبير- فإن العدد الأكبر من مؤيديها لن يصدقوها إلا لمن كان بينهم سطحيًا ساذجًا. فالمبالغة لدى الشرقيين ظاهرة معروفة بشكل جيد.

لن أذكر سوى دليل واحد حديث جدًا، عندما جرى منذ اسبوعين تنصيب الأمير فيصل في دمشق، روى بعض الأشخاص ان أكثر من 400 ألف شخص حضروا أو شاركوا في هذا الحفل. لكن في اليوم التالي للتنصيب، أُرسل تقرير رسمي موجه إلى الجنرال غورو Gouraud يحد من العدد الخيالي للمشاركين ويجعلهم أربعة آلاف. اعتقد، لنقل وكي يكون ضميرنا مرتاحًا، ان العدد كان حوالى 40 ألفًا. ولكن علينا ألا ننسى ان نصف الـ 40 الفًا كانوا موجودين هناك إما بدافع الفضول والحشرية، وإما بفعل التزلّف، وإما أخيرًا بدافع الخوف من الانتقام.

لذلك، دعونا ألا ننخدع إذًا لأن السهل ليس مؤيدًا للشريف.

وهكذا، فكل شي يدعو فرنسا إلى إجراء هذا الضم الذي يطالب به لبنان والسهل برغبة شديدة، مع ما يحققه ذلك من ازدهار للبنان طالما فرنسا احبته دائمًا بحبٍ يهواها، على ما كانت تردد مرارًا، وأن الأوضاع التعيسة للسهل لا يمكن ان تترك فرنسا لامبالية، بالنظر للسخاء الذي عُرفت به في كل العصور، ومبادئ تقرير المصير الذي وافقت هي نفسها عليه.

وهكذا يتملكني أمل راسخ، فخامة الرئيس، انكم ستتعاطفون معنا لتحقيق أمنياتنا، مواصلين بذلك التقاليد الإنسانية لأسلافكم في الحكم الذين أظهروا دائمًا انفتاحًا واهتمامًا وعاطفةً تجاه لبنان.

وعلى هذا الأمل، أرجوك فخامة الرئيس قبول مشاعر الاحترام العميق التي أكنها لشخصكم، ودواعي الاعتبار الرفيع الذي أنظر بها إليكم.

**زحلة في 13 أيار 1920.**

**المطران كيرلس مغبغب راعي أبرشية زحلة والفرزل والبقاع للروم الكاثوليك**

¶ ¶ ¶

يشدد باسم الجسر في أحد مؤلفاته على الأبعاد الاقتصادية والسياسية المتصلة بشكل وثيق بالمطالبة بلبنان الكبير الذي تتطابق حدوده مع الحدود المذكورة في الدستور اللبناني (وضع عام 1926). ويقول الجسر : "إن هذه الفكرة اللبنانية لم يقتصر طموحها على حدود الجبل، إذ أدرك القائلون بها، لأسباب إقتصادية وثقافية وديمغرافية، ان حدود الجبل لا تكفي لقيام دولة ذات دورة اقتصادية متكاملة أو على الأقل قابلة للحياة، بالنسبة لظروف الحياة الاقتصاية آنذاك، من هنا كانت المطالبة بتوسيع حدود لبنان ليشمل الساحل والسهول المجاورة للجبل".

لذلك ارتدت المطالبة بتوسيع حدود لبنان طابعًا وطنيًا جامعًا، بالرغم من أن المنادين إلى الانضمام إلى فكرة إنشاء وطن سوري مستقل برئاسة الأمير فيصل قاموا بالتحرّك في اتجاه معاكس. لكن تظهر الوثيقة المنشورة أعلاه حجم التضخيم الذي صُورت به تلك المطالبة.

إن إعلان لبنان الكبير ليس انتصارًا لفريق وهزيمة لآخر، بل هو انتصار لتيار تؤيده أكثرية السكان في مناطق جبل لبنان وفي المناطق المحيطة به. وان مقاومة الانتداب الفرنسي ما بين 1920 و1943 لم تكن تُمثّل موقفًا سلبيًا بالنسبة للكيان اللبناني، بل موقفًا داعمًا للوحدة والاستقلال والتضامن في ما بين اللبنانيين.

كُتب الكثير حول موقف الطائفة السنيّة من الدولة اللبنانية، وصيغت إيديولوجيا مكتملة حول معارضة المسلمين السنّة للدولة اللبنانية، وطبيعة هذه المعارضة ورفضهم المشاركة في الكيان الجديد إنطلاقًا من اعتبارات سياسية ودينية وإقتصادية. ولكن، ما كانت الفائدة بعد أكثر من مئة سنة على مشاركة السنّة في لبنان؟ مزيد من الاندماج والمشاركة والتلبنن.

في الأول من أيلول 1920 تمّ إعلان دولة لبنان الكبير في حفل مهيب أُقيم في قصر الصنوبر بحضور البطريرك الماروني الياس الحويك ومفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا، مما أطلق رسالة "لجميع اللبنانيين والسوريين ان المسلمين والمسيحيين على السواء مع دولة لبنانية مستقلة عن سوريا" . وتذكر بعض الكتابات التاريخية أن المفتي حضر بعد تردد، "الأمر الذي حمل وجهاء المسلمين على إقناعه بالحضور" . وحرص الجنرال غورو على تطمين المسلمين المعارضين: "فلبنان وجد لصالح الجميع. إنه لم يوجد ضد أي كان. إنه عبارة عن وحدة سياسية وإدارية. ولا ينطوي على أية تفرقة دينية..." .

¶ حسان حلاق، "أعلام لا تُنسى في تاريخ بيروت: العلامة الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت المحروسة: جذور أصيلة، وعلم نافع، مواقف مشرّفة (1852-1932)"، الحلقة 1/3، جريدة اللواء، السبت 28/4/2012.

¶ أدمون رباط، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، الجزء الثاني، ترجمة حسن قبيسي، أعدّه للنشر جورج كتّورة، دائرة المنشورات في الجامعة اللبنانية، الإدارة المركزية، بيروت، 2002، ص 581.

¶ نهاد حشيشو، الحياة الدستورية في لبنان: نشأة الدستور، التعديلات، التفسيرات، المركز العربي للمعلومات-الحمراء، بيروت، 2015، ص 34-35.